الفصل الأول

تراثنا من قديمه البعيد
الى عصر الحضارة الإسلامية

- حركة الجمع والتدوين لتراث الجاهلية
- تراث الدولة الإسلامية الكبرى
- رصيد المكتبة العربية فى عصر الحضارة الإسلامية

يمكن القول بأن حركة جمع الشعر الجاهلي وتدوينه ، كانت أول حركة تاريخية جادة لحماية التراث ونشره . وقد ظل تراث الجاهلية يُنقل شفاها من قديمه المعروف لنا ، قبل الإسلام بنحو قرنين ، إلى أن ظهرت الحاجة الماسة إلى جمعه وتدوينه . فاتجه الاهتمام إليه من النصف الثانى للقرن الأول الهجرى ، ثم ازدهرت الحركة فى العصر العباسى الأول ، وأخذت وضعاً قومياً ودينياً بالغ الخطر .

وخلال تلك المرحلة الأولى التى امتدت نحو ثلاثة قرون وبعض قرن ، كان الشعر خلالها يروى شفاها من جيل إلى جيل ، تعرض تراث الجاهلية لآفات الرواية النقلية ، فحُمِل عليه ما ليس منه ، وضاع منه ما ضاع فى غمار الزمن ومتاهة النسيان .

حتى تصدت الطبقة الأولى من الرواة فى عصر التدوين ، لاستنقاذ تراث العربية من الضياع والتشويه والانتحال ، فى مواجهة التيار الشعوبى الذى خيف منه على لسان الأمة ولغة القرآن الكريم كتاب دينها ، من فشو العجمة واختلاط الألسن وغزو الشعوبية .

وشدّ الرواة رحالهم إلى البادية والمناطق البعيدة نسبياً عن التيارات الوافدة ، ليجمعوا تراث الفصحى من أهلها ، ويأخذوا من أفواه الأعراب الذين لم تفشُ فيهم العجمة ولم تختلط ألسنتهم ، ما وعت ذاكرتهم من تراث الآباء والأجداد[1] .

ولم يفت أولئك الرواةَ ما لحق بالشعر من آفات الوضع والانتحال ، غير أن الحركة كان لها من الحرمة ما يصونها إلى حد كبير من عبث الأهواء وتزييف المرتزقة من الرواة[2] ، ويخضعها لرقابة دقيقة صارمة ، كشفت عن أكثر الزائف والمنحول ، وميزت رواةً عُرفوا بالضبط والثقة والأمانة ، وجرحت آخرين اشتهروا بالتهاون أو الكذب والوضع .

---

(١) راجع كتاب (المزهر فى علوم اللغة) للسيوطى ، وكتاب (الاستشهاد فى النحو) للأستاذ سعيد الأفغانى . ط دمشق .

(٢) ابن سلام : طبقات الشعراء – الفصل الأول .

ذلك لأن حركة الجمع والتدوين ، قُصد بها أوّل ما قصد ، إلى حماية لسان الأمة وخدمة كتاب الإسلام وفهم ألفاظه وتوجيه إعرابه ولمح أسراره فى التعبير والبيان . وقد قامت فى القرنين الثانى والثالث للهجرة ، على أيدى أئمة ثقاة من الخبراء ذوى البصر بالشعر ، يعرفون صحيحه من زائفه ، كما يعرف الجوهرى والصيرفى صنوف الجوهر والدراهم .

والذى فات أولئك الخبراءَ كشفُه من المنحول ، كان من مهارة التقليد بحيث يحمل خصائص الشعر القديم .

فبقدر حاجة الأمة إلى هذا التراث الأصيل للفصحى ، كانت جدية عملية الرواية وفحص المرويات وامتحان الرواة من الأعراب وغيرهم .

* * *

وجاءت حركة الجمع والتدوين بتراث ضخم ، عكف عليه الدارسون يستخلصون منه معظم ألفاظ العربية ، ويميزون قواعد نحوها واشتقاقها وضوابط شعرها ، وأساليبها البيانية وخصائصها فى التعبير .

وآخرون منهم اختصوا بدراسته ، فشغل منهم من شغل بشرح ألفاظه وتفسير غريبه ، واهتم غيرهم بتذوقه ونقده ، فأضافوا رصيدهم إلى المجموع من تراث الجاهلية .

واستحدثت الأجيال الإسلامية ، أنواعاً من التأليف فى علوم التفسير والحديث والفقه والعقائد والملل والنحل والفلسفة وتاريخ الإسلام والنظم الإسلامية وتراجم الأعلام وطبقات الرجال ، فتركوا لنا تراثهم الخصب فى علوم الإسلام ، وكان القدر الأكبر منه لمؤلفين من علماء الشعوب التى دخلت فى الإسلام وتعربت .

وتكفى مراجعة يسيرة لفهرست ابن النديم ، وكشف الظنون لحاجى خليفة[١] ، للإلمام بذلك الرصيد الضخم من تراث العرب الذى أضاف إليه كل جيل رصيده من علوم العربية والإسلام ، إلى جانب ما تركوا من مؤلفات فى علوم محدَثة ،

---

(١) وانظر معهما : بروكلمان : تاريخ الأدب العربى ، وكراتشكوفسكى : تاريخ الأدب الجغرافى العربى – الترجمة العربية – نشر جامعة الدول العربية .

كالفلك والجغرافيا والجبر والهندسة والطب والعقاقير والنبات ، انتفعوا فيها بتراث الشعوب الإسلامية التي حملته معها من قديمها ، وما نقلت حركة الترجمة من تراث اليونان وغير اليونان .

* * *

وما ينبغي أن يفوتنا الالتفات إلى أمرين ، لكي نقدر ذلك الجهد حق قدره :

أولهما : أن تلك النهضة الفكرية والعلمية سبقت عصرَ المطبعة وأجهزة الإعلام والدعاية والنشر ، فاعتمد الكتاب على الخط والنسخ في الجمع والتدوين، وفي التأليف والترجمة والنشر .

والأمر الثاني ، أنه في الزمن الذي كانت فيه الدولة الإسلامية تبذل ذلك الجهد السخي لحماية التراث وترجمة العلوم ونشر الثقافة وخدمة الفكر ، كان الغرب الأوربي في ظلمات عصوره الوسطى . .

* * *

ويعيي أيَّ جهد أن يستوعب ذلك التراث الضخم على وجه التقريب ، ولا أقول على وجه الحصر والإحصاء . كما يضيق المجال هنا عن نظرة شاملة تحيط علماً بجملة ذلك التراث من المخطوطات ، فحسبنا أن نشير في إيجاز إلى عدد من دور الكتب وخزائن التراث ، لا ننظر فيها إلا من حيث مكانتها المرموقة في الدولة الإسلامية ، ودورها الجليل في رسالتها الحضارية ، وما ضمت من ملايين الذخائر التي تعطينا فكرة عما خلف لنا أسلافنا من تراثٍ ضيعناه !